

في الأدب العربي

عكاظ والمريد للاستاذ أحمد أمين

— ٢ —

وقد يتفاخر الرجلان من قبيلتين فيفخر كل قبيلته ومكارمها ،
نتجاً كان إلى حكم عكاظ ، كما فعل رجل من قضاة
فاقر رجلاً من الين فتحاكما إلى ذلك الحكم (١)
ومن كان داعياً إلى إصلاح اجتماعي أو انقلاب ديني كان يرى
أن خير فرصة له سوق عكاظ ، والقبائل من أنحاء الجزيرة
مجموعة ، فمن قبل الدعوة كان من السهل أن يكون داعياً في قومه
إذا عاد إليهم ، فرى قس بن ساعدة يقف بسوق عكاظ يدعو
دعوته ويخطب فيها خطبته المشهورة علي جمل له ورق ، فيرغب
ويرهب ويحذر وينذر .

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اتجه إلى دعوة
الناس بعكاظ لأنها مجمع القبائل ، روي الواقدي أن رسول الله
أقام ثلاث سنين من نبوته مستخفياً ، ثم أعلن في الرابعة فدعا عشر
سنين ، يوافي الموسم ، يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ والمجنة وذى
المجاز ، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم
الجنة ، فلا يجد أحدا ينصره حتى أنه يسأل عن القبائل
ومنازلهم قبيلة قبيلة ، حتى انتهى إلى بني عامر بن صعصعة فلم يلق
من أحد من الأذى ما لقي منهم (٢) وفي خبر آخر أنه أتى كندة
في منازلهم بعكاظ فلم يأت حياً من العرب كان ألين
منهم (٣) وعن علي بن أبي طالب أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم كان يخرج في الموسم فيدعو القبائل فما أحد من
الناس يستجيب له ندائه ويقبل منه دعايه ، فقد كان يأتي
القبائل بمجنة وعكاظ ومنى حتى يستقبل القبائل ، يعود إليهم سنة
بعد سنة ، حتى كان من القبائل من قال : أما آن لك أن
تأمن منا ؟ من طول ما يعرض نفسه عليهم ، حتى

(١) أمال الضبي ص ١٨ (٢) دلائل النبوة ١٠١ ، ١٠٢ .

(٣) ص ١٠٣ .

استجاب هذا الحى من الأنصار (١)

وروى اليعقوبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام
بسوق عكاظ عليه جبة حمراء فقال : يا أيها الناس قولوا لا إله
إلا الله تفلحوا وتنجحوا ، ويتبعه رجل يكذبه وهو أبو لهب بن
عبد المطلب (٢)

كذلك كان لعكاظ أثر كبير لغوى وأدبي ، فقد رأينا
قبائل العرب علي اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل
بها ، وملك الحيرة يبعث تجارتها إليها ، ويأتي التجار من مصر
والشام والعراق (٣) فكان ذلك وسيلة من وسائل تفاهم
القبائل ، وتقارب اللهجات ، واختيار القبائل بعضها من بعض ما
ترى أنه اليق بها وأنسب لها ، كما أن التجار من البلدان المتقدمة
كالشام ومصر والعراق كانوا يطلعون العرب على شيء مما رأوا
من أحوال تلك الأمم الاجتماعية . وفوق هذا كانت عكاظ
معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية يلقي فيها الشعر والخطب وينقد
ذلك كله ويهذب ، قال أبو المنذر : « كانت بعكاظ منابر في
الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعد مأثره
وأيام قومه من عام إلى عام فيما أخذت العرب أيامها
وغرها ، وكانت المنابر قديمة يقول فيها حسان :

أولاء بنو ماء السماء توارثوا دمشق بملك كابر بعد كابر
يؤمنون ملك الشام حتى تمكنوا ملوكاً بأرض الشام فوق المنابر (٤)
فيقف اشراف العرب يفخرون بمنابهم ومناب قومهم ..
فبدر بن معشر الغفاري . . . كان رجلاً منيعاً مستطيلاً
يمنعته على من ورد عكاظ فاتخذ مجلساً بهذه السوق وقعد
فيه وجعل يبرح على الناس ويقول .

نحن بنو مدركة بن خندف من يطعنوا في عينه لا يطرف
ومن يكونوا قومه يظرف كائهم لجة بحر مسدف
فيقوم رجل من هوازن فيقول :

أنا ابن همدان ذوى النغطف بحر بحور زاهر لم ينزف
نحن ضربنا ركة المخندف اذمدها في أشهر المعرف (٤)

(١) ص ١٠٥ . (٢) اليعقوبي ١ ص ٢٣ و ٢٤ . (٣) يروون أن
عبد الله بن جدعان أتى مصر فباع ما معه وعاد إلى سوق عكاظ . انظر
اللائل للهمداني جزء ٨ ص ١٨٤ وما بعدها . (٤) الأزمدة والامكنة
١٧٠ . (٥) الاغانى ١٩ ص ٧٤

وعمر بن كلثوم يقوم خطيباً بسوق عكاظ وينشد قصيدته المشهورة:

ألا هي بصحنك فاصبحنا (١)

والاعشى يوافي سوق عكاظ كل سنة ، ويأتي مرة فذا هو
بسرحة قد اجتمع الناس عليها فينشدهم الاعشى في مدح الملقى (٢)
والنابغة الذبياني تضرب له قبة آدم بسوق عكاظ يجتمع اليه فيها
الشعراء فيدخل اليه حسان بن ثابت وعنده الاعشى والخنساء
فينشدونه جميعاً ويفاضل بينهم وينقد فيما زعموا قول حسان :
لنا الجففات الغري يلعن في الضحى

فيقول لحسان قلت العدد ولو قلت الجفان لكان أ كثر .
وقلت يلعن بالضحى ولو قلت يبرق بالدجى لكان ابلغ في المديح
لأن الضيف بالليل اكثر طروقا (٣)

ودريد بن الصمة يمدح عبدالله بن جدعان بعد ان هجاه فيقول :
إليك ابن جدعان اعلمتها محففة للسرى والنصب (٤) الخ
وقس بن ساعدة يخطب الناس خطبته المشهورة فيذكرهم
بالله والموت ورسول الله يسمع له (٥) ، والخنساء تسوم هودجها
براية وتشهد الموسم بعكاظ وتعظم العرب بمصيتها في أبيها
عمر بن الشريد وأخوها صخر ومعاوية ، وتنشد في ذلك القصائد ،
فلما وقعت وقعة بدر وقتل فيها عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة
والوليد بن عتبة أقبلت هند بنت عتبة الى عكاظ ، وفعلت كما فعلت
الخنساء ، وقالت اقرنوا جلجلى بحمل الخنساء ففعلوا ، فعاظمت هند
الخنساء في مصيتها وتناشدتا الأشعار : تقول احداهما قصيدة في
عظم مصيتها وترد الاخرى عليها (٦) . وعلى الجملة
فكانوا في عكاظ يقبايعون ويتعاطفون ويتفاخرون
ويتعاجون ، وتنشد الشعراء ما تجدد لهم ، وفي ذلك يقول حسان :
سأنشر ما حييت لهم كلاماً ينشر في المجمع من عكاظ
فن هذا كله نرى كيف كانت عكاظ مركزاً لحركة أدبية
ولغوية واسعة النطاق كما كانت مركزاً لحركة اجتماعية واقتصادية .

نظام سوق عكاظ

كانت القبائل — كما أسلفنا — تنزل كل قبيلة منها في مكان
خاص بها ، ثم تتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشراء أو في
الحلقات المختلفة . كالذى حكينا أن الاعشى رأي الناس
يجتمعون على سرحة ، أو حول الخطيب يخطب على منبر ،
أو في قباب من آدم تقام هنا وهناك ، ويختلط الرجال بالنساء

في المجمع ، وقد يكون ذلك سبباً في خطبة أو زواج أو
تنادر (١) وكانت تحضر الأسواق — وخاصة سوق عكاظ —
أشراف القبائل ، وكان أشراف القبائل يتوافون بتلك الأسواق
مع التجار من أجل ان الملوك كانت ترضخ لأشراف ، لكل
شريف بسهم من الأرباح ، فكان شريف كل بلد يحضر سوق
بلده ، إلا عكاظ فانهم كانوا يتوافون بها من كل أوب ، (٢) .

والظاهر أن المراد بالملوك هم الأمراء ورؤساء القبائل
الذين يرسلون بضائعهم لبيعها في أسواق العرب كملك الحيرة
والغساسنة وأمراء اليمن ونحوهم — وكانت القبائل توثق لرؤسائها
اتاة في نظير اقامتهم بالسوق ، فقد ذكر اليعقوبي في تاريخه
أخبار أسواق كثيرة كان يعشرها أشرافها — أى يأخذون
العشر (٣) وفي عكاظ كانت القبائل تدفع لأشرافها هذه
الاتاة ، فهازن كانت توثق زهير بن جذيمة الاتاة كل سنة
بعكاظ ، وهو يسومها الخسف وفي أنفسها منه غيظ
وحقد ، (٤) وكانت الاتاة سمناً وأقطاً وغنماً (٥) ، وكان
عبد الله بن جعدة سيداً مطاعاً وكانت له اتاة بعكاظ . يوثق بها ،
ويأتي بها هذا الحى من الازد وغيرهم ، ومن هذه الاتاة
ثياب (٦)

وكان الأشراف يمشون في هذه الأسواق ملثمين ، ولا
يوافيها (عكاظ) شريف إلا وعلى وجهه برقع مخافة ان يؤسر
يوماً فيكبر فداوة ، فكان أول من كشف طريف الغنبري ،
لما رأيهم يطلعون في وجهه ويتفرون في شمائله ، قال : قبح
من وطن نفسه إلا على شرفه ، وحسر عن وجهه وقال :
أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا الى عريفهم يتوسم
فتوسموني اتني أنا ذلكم شاكي السلاح وفي الحوادث معلم
الى آخر الآيات (٧)

وكان على سوق عكاظ كلها رئيس اليه أمر الموسم واليه
القضاء بين المتخاصمين ، قال أبو المنذر : وتزعم مضر أن
أمر الموسم وقضاء عكاظ كان في بني تميم وكان من
اجتمع له ذلك منهم بعد عامر بن الظرب العدواني سعد بن
زيد بن مناة من تميم ، وقد فخر المخبل بذلك في شعره :
ليالى سعد في عكاظ يسوقها له كل شرق من عكاظ ومغرب

(١) أنظر الاغانى ج ١٠ ص ١٤٥ وما بعدها وج ١٣ ص ١٤٠ وما بعدها
(٢) الازمنة والامكنة ٢ ص ١٦٦ (٣) اليعقوبي جزء ٢ ص ٣١٣ وما
بعدها (٤) الكامل لابن الاثير ١ ص ٢٢٩ (٥) أغانى ١٠ ص ١٢
(٦) أغانى ٤ ص ١٣٦ وما بعدها (٧) الازمنة والامكنة ٢ ص ١٦٦

(١) الاغانى ٩ ص ١٨٢ (٢) الاغانى ٨ ص ٧٩ ، ٨٠

(٣) أغانى ٨ ص ١٩٤ ، ١٩٥ (٤) أغانى ٩ ص ١٠

(٥) اغانى ١٤ ص ٤١ و ٤٢ (٦) صفة جزيرة العرب ص ٢٦٣

حتى جاء الاسلام فكان يقضى بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع (١)

تاريخ عكاظ :

من العسير جدا أن نحدد بدء عكاظ ، فلم نجد في ذلك خبرا يصح التعويل عليه ، يقول الألوسي في بلوغ الأرب : انها اتخذت سوقا بعد الفيل بخمس عشرة سنة ، ولكن اذا بحثنا في الأحداث التي رويت في عكاظ وجدنا ذلك غير صحيح ، فهم يروون — كما قدمنا — أن عمرو بن كلثوم أنشد قصيدته في عكاظ ، وعمرو بن كلثوم كان على وجه التقريب حول سنة ٥٠٠ م . كذلك اذا عدنا الى ما رواه المرزوقي في الازمنة والامكنة عن رؤساء عكاظ وجدنا أنه عدهم قبل الاسلام عشرة ، أولهم عامر بن الظرب العدواني . وهذا — من غير شك — يجعل تاريخ عكاظ أبعد مما يحكى الألوسي بزمان طويل ، كذلك يروى الأغاني ان علة زوجة عبد شمس بن عبد مناف باعت أنحاء سمن بعكاظ (٢)

وظلت سوق عكاظ تقوم كل سنة ، وكانت فيها قبيل الاسلام حروب الفجار ، وهي حروب أربع ، وكان سبب الأولى على ما يروي ، المفاخرة في سوق عكاظ . وسبب الثانية تعرض فتية من قريش لامرأة من بني عامر بن صعصعة بسوق عكاظ . وسبب الثالثة مقاضاة دائن لمدينه مع اذلاله في سوق عكاظ ، وسبب الأخيرة أن عروة الرجال ضمن أن تصل تجارة النعمان بن المنذر الى سوق عكاظ آمنة فقتله البراض في الطريق (٣)

فكلها تدور حول سوق عكاظ ، وهذه الحروب كانت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بست وعشرين سنة ، وشهدها النبي وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه ، وقال : كنت يوم الفجار أنبل على عمومي (٤)

واستمرت هذه الحروب نحو أربع سنوات . وقد كانت هناك نزعتان عند أشراف العرب نزعة قوم يقصدون الى السلب والنهب وسفك الدماء لا يصدم صادم ولا يروعون حتى الأشهر الحرم ، ويتحشرون بالناس ، فيمد أحدهم رجله في سوق عكاظ ويتحدى الأشراف مثله أن يضربوها فتثور من ذلك الثائرة (٥)

وفريق يميل الى السلم ودرء أسباب الحروب ونجاح التجارة والأسواق بتأمين السالكين وعدم التعرض لهم بأذى ،

(١) أنظر تعداد من ولي عكاظ في الازمنة والامكنة ٢ ص ١٦٧

(٢) أغاني ١ ص ٨٤ . (٣) انظر المقدم الفريد ٣ ص ١٠٨ . والأغاني .

(٤) النهاية لابن الأثير مادة فجر (٥) الأغاني ٤ ص ١٣٦ .

جاء في تاريخ يعقوبي : « أنه كان في العرب قوم يستحلون المظالم اذا حضروا هذه الأسواق فسموا « المحلون » ، وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر فيسمون الذادة « المحرمون » ، فاما المحلون فكانوا من أسد وطيء وبني بكر بن عبد مناة وقوم من بني عامر بن صعصعة — وأما الذادة المحرمون فكانوا من بني عمرو بن تميم وبني حنظلة بن زيد مناة وقوم من هذيل وقوم من بني شيان . . . فكان هؤلاء يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس (١) — .

وكان من أشهر الداعين الى السلم عبد الله بن جدعان ، فقد كان اذا اجتمعت العرب في سوق عكاظ دفعت أسلحتها الى ابن جدعان ، ثم يردھا عليهم اذا ظعنوا ، وكان سيدا حكما مثرى (٢) .

ويظهر أن أصحاب هذه النزعة الثانية وهم الذادة هم الذين سماوا هذه الحروب حرب الفجار ، لما ارتكب فيها من الفجور وسفك الدماء ، وهم الذين تغلبوا فيها بعد ونجحوا في وقف هذه الحروب ، ودعوا الناس أن يعدوا القتلى فيدوا من فضل ، وأن يتعاقدا على الصلح ، فلا يعرض بعضهم لبعض ، وربما كان من أثر ذلك حلف الفضول ، وقد عقد في بيت عبد الله بن جدعان هذا .

واستمرت عكاظ في الاسلام ، وكان يعين فيها من يقضى بين الناس ، فعين محمد بن سفيان بن مجاشع قاضيا لعكاظ ، وكان أبوه يقضى بينهم في الجاهلية وصار ذلك ميراثا لهم (٣) ولكن يظهر أن هذه الأسواق ضئف شأنها بعد الفتوح فأصبحت البلاد المفتوحة أسواقا للعرب خيرا من سوق عكاظ ، وصار العرب يغشون المدن الكبيرة لقضاء أغراضهم ، فضعفت أسواق العرب ومنها عكاظ . ومع ذلك ظلت قائمة وكان آخر العهد بها قبيل سقوط الدولة الأموية . قال السكبي : « وكانت هذه الأسواق بعكاظ ومجنة وذى المجاز قائمة في الاسلام حتى كان حديثا من الدهر ، فأما عكاظ فأما تركت عام خرجت الحرورية بمكة مع أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي الأباضي في سنة تسع وعشرين ومائة ، خاف الناس أن ينهبوا وخافوا الفتنة فتركت حتى الآن ، ثم تركت مجنة وذو المجاز بعد ذلك « البقية علي صفحة ٢٧ »

(١) يعقوبي ٢ : ٣١٣ وما بعدها (٢) انظر الأغاني ١٩ ص ٧٣

وما بعدها (٣) الازمنة والامكنة ج ٢ ص ١٦٧ وما بعدها .